المقتطف

الجزء الثامن من المجلد الثاني والثلاثين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩٠٧ — الموافق ٢١ جمادى الثانية سنة ١٣٢٥

مصر والسودان

الرسالة السابعة . الملكة حتشبست والدير البحري

فرغت من الكلام على ما شاهدناهُ في السودان وبلاد النوبة. وكانت ابنتي معي فرغبت اليَّ في ان اريها بعض الآثار المصرية في رجوعنا ولو كنت قد رأيتها في رحلتي الاولى التي كتبت فيها "رسائل النيل". فرجعنا في سفينة بخارية من سفن الاكسبرس نيل الجديدة ومررنا اولاً على كوم امبو وزرنا هيكلها المشهور وهو على دكَّة في الضفة الشرقية وقد وصل النيل اليها وجار عليها وهدم البرجين اللذين كانا امام الهيكل ولولا عناية مصلحة الآثار المصرية لجرف الدكة ونقض البناء كلهُ

بنى هذا الهيكل البطالسة على آثار هيكل قديم من عهد الدولة الثامنة عشرة او بناهُ الكهنة المصريون باسم البطالسة ونزلنا اليهم . وهو يمتاز عن اكثر الهياكل المصرية بان لهُ بابين ومرين وحرابين كما ترى في الرسم الثاني كأنهُ هيكلان في هيكل واحد لانهُ بني لمعبودين متضادين هورس اله النور وسبك اله الظلمة . دارهُ الخارجيَّة كبيرة رحبة فيها ستة عشر عمودًا ارتفاع كل منها اربعون قدمًا والداخلية اصغر منها وفيها عشرة اعمدة وتليها دار ثالثة فيها عشرة اعمدة ايضاً وبعد ذلك غرف كثيرة الى ان تصل الى المحرابين . وطول الهيكل ٥٠٠ قدم وعرضهُ ٣٥٠ قدماً فهو مثل اعظم المباني التي تشاد في هذا العصر في العواصم الاوربية . وجدرانهُ واعمدتهُ مغطاة بالنقوش ونقوشها على غاية الدقة صورٌ كانت او كتابات هيروغليفية كأنَّ صناعة النقش عادت الى اوج مجدها في عهد البطالسة وزادت اتقاناً في رسم تقاطيع الوجه وفي الكتابات كثير من الاخبار التاريخيَّة والاوصاف الجغرافية الجزيلة النفع

ولو لم يكن في القطر المصري سوى هيكل واحد مثل هذا الهيكل لكفى بهِ مغريًا للناس بزيارته من اقاصي المسكونة

وقد مررت بكوم امبو منذ بضع سنوات وقت الاحتفال بفتح الخزان وكانت الارض رمالاً تذهل لكن المعارفين بها قالوا لي حينئذٍ ان طبقة الرمل رقيقة وتحتها طمي جيد لا ينقصهُ الاَّ الماء حتى يصير مثل اجود اطيان القطر المصري . وقد تحقق هذا القول الآن لان شركة كوم امبو التي تألفت بعد ذلك وابتاعت تلك الاراضي من الحكومة المصرية ركَّبت الآلات الرافعة على النيل واصلحت الوقًا من الفدادين وزرعتها وبنت البيوت الكبيرة للنظار

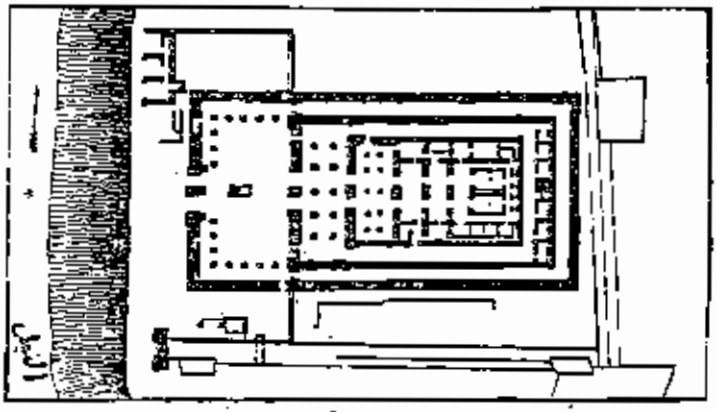

(١) رسم هيكل كوم امبو

والقرى للفلاحين فجادت الارض بخيراتها بعد ان بقي طمي النيل فيها الوقًا من السنين قاحلاً لا ينبت شيئًا . وكنت اراها من ظهر السفينة وانا لا اصدق انها هي الرمال التي رأيتها منذ بضع سنوات

ثم عاودنا المسير والسفينة تكاد تطير بنا لاننا كنا وحدنا عليها الى ان بلغنا ادفو . وكان عمال الشركة قد ارسلوا تلغرافًا الى وكيلهم ليعدَّ لنا الركائب فركبنا وسرنا في البلد الى الهيكل فرأيت ان اكوام التراب التي كانت حولهُ في رحلتي الاولى قد ازيل اكثرها ولا سيما من الجهة الشمالية ولا يزال العمال يحفرون الاتربة ويرفعون البناء . والهيكل كما وصفتهُ غير مرة من اجمل الهياكل المصرية وانهُ لم تتناولهُ ايدي الخراب لان الردم غطاهُ منذ زمن طويل فحجبهُ عن الانظار . طولهُ ٤٥٠ قدمًا وعرضهُ ١٢٠ قدمًا ولهُ برجان كبيران اتساعهما ٢٥٠ قدمًا وارتفاعهما ١١٥ قدمًا ودارهُ الخارجية رحبة جدًّا فيها ٣٢ عمودًا على دائرها وسقف

الخراب الداخلي خزانة المرمر التي يوضع فيها رمز الاله المعبود في الهيكل . وقد وصفت هذا الهيكل بالاسهاب في رحلتي السابقة ونشرت رسمهُ فيها فلا داعي لاعادة الوصف

ولا تزال ادفو كما كانت ببيوتها الحقيرة وشوارعها الضيقة واتربتها المتراكمة وقد فقد الناس كل ذوق في البناء والنقش او لم يكن لهم ذوق فيها مطلقاً بل كان البنَّاؤون والنقاشون اجانب عنهم كاليونانيين والنقاشين الايطاليين في هذا العصر

وعدنا الى السفينة فاطلقت ابخار وسارت بنا نشقُّ عباب النيل وقد سال ذهب الاصيل على لجين الماء الى ان توارت الشمس في الحجاب وبرزت الدراري ترتب هياكل مصر كما كانت ترتبها في زمن الفراعنة والبطالسة فلا تسمع اصوات الكهنة ولا تراتيل المتعبدات بل ترى الخفافيش تطير حولها والخراب محيقٌ بها . وسرنا على هذا النمط الى ان بلغنا اسنا فلقينا الناسَ بالقوانيس ورأيت ان التراب الذي كان متراكماً امام باب الهيكل قد أُزيل كلهُ فلم اعد ارى الوان النقش في اعلى العتب . واخفى ضوءُ المصابيح في ذلك الظلام الدامس لكن الظلام زاد الهيكل مهابة ووقاراً ، ولم يكشف تماماً حتى الآن الا الرواق الخارجي وهو نحو ربع الهيكل والثلاثة الارباع لا تزال مغطاة بالاتربة والمباني وطول الرواق ١٢٠ قدماً اي عرض الهيكل وعرضهُ ٥٠ قدماً وفيهِ ٢٤ عموداً ارتفاع كلٍّ منها ٣٧ قدماً وهو مسقوف بصفائح كبيرة من الحجر طول كل صفيحة منها نحو ٢٥ قدماً وعلى السقف نقوش كثيرة بديعة وفيها صورة منطقة البروج

وعدنا الى السفينة وواصلنا السرى الى ان بلغنا لقصر فبتنا فيها وقمنا في الصباح فزرنا هيكل لقصر ثم هياكل كوم امبو . ورأيت عناية الحكومة برفع الاتربة التي كانت متراكمة في هيكل لقصر وحولهُ وكشف جانب كبير منهُ لم يكن مكشوفاً حين زيارتي الاولى . وهنا لو رأى ديوان الاوقاف سبيلاً الى نقل الجامع الذي لم يُترك هناك حتى الآن الا ليعظم الفرق بين قوة سكان مصر الاقدمين الذين بنوا الهيكل وضعف الذين بنوا الجامع . ففي بناء الهيكل من العظمة والمهارة والدقة ما يقف امامهُ اعظم الناس خاشعاً . انظر الى مسلته وقد انتصبت تناطح السحاب وجوانبها ملساء كالبلور مع انها من الحجر الحبب الاصم ونقوشها غائرة على تمام الانتظام وانفرادها يدل على اختيها التي حسب الفرنسويون انهم عثروا اخيراً على بقية لما اخذوها من القطر المصري ونصبوها في اكبر ساحة من ساحات عاصمتهم بين اعظم التماثيل التي اقاموها لمدنهم . او انظر الى تماثيلهِ الكثيرة من الحجر الحبب الاحمر والازرق وكلٌّ منها كالبرج الرفيع . وانظر الى الجدران المؤلفة من الحجارة الضخمة والاعمدة الخلقة التيجان وما عليها من

النقوش وكل منها كالبرج العظيم المثمنة عمود او اكثر يبلغ علو بعضها اكثر من اربعين قدماً والمصورون وقوف يصورونها ويمثلون اشكالها والوانها ثم اذا جاءت منك التفاتة الى الجامع والخشب مكسر في شرفاته والحجر متناثر من جدرانه اغمضت عينيك وغمضت عنك لانك لا تستطيع ان ترى الناس يحطون عن اصلافهم الى هذا الحد . وما قيل عن الجامع يقال عن آثار الكنيسة التي اقيمت في الطرف الجنوبي من الهيكل . ولا ندري كيف يتخيل الانسان ان يدخل قصراً نقياً لاسلافه بل معبداً من معابدهم ويتلف احدى مقاصيره ليبني فيها معبداً آخر لا يقاس بالاول

وركبنا الى هياكل كرنك في جانب كبير من الطريق القديم التي كانت تماثيل الكباش تكتنفه على جانبيه ولم يزل كثير منها قائماً الى الآن فرأينا العمال يعملون في نقب الاتربة وترميم الجدران المتداعية واعادة الاعمدة التي سقطت ولا اتعرض لوصف هذه الهياكل بعد ان وصفتها بالاسهاب في رحلتي السابقة ولان الوصف لا يغني عن العيان ولا يوفيه حقه كتاب كبير مملوء بالصور والنقوش

وذهبنا في اليوم التالي الى الضفة الغربية وزرنا قبور الملوك وهيا كلهم — آثار العظمة والمجد — مظاهر القوة والجبروت — دلائل الاعتقاد بالبقاء والخلود — مشاهد الجور والعسف والتخريب والتدمير — تاريخ مصر من اقدم عصورها الى الآن — تاريخ العلم والصناعة والتجارة والتدين والعدل والظلم والجهل والموت والبعث والنشور — كل ذلك تنطق الحجارة به وتملأ سيف نقوشها ورموزها ولا تستوفي وصفه المجلدات

فاني ان اصف في رحلتي الماضية هيكل الدير البحري فاصفه الآن بالايجاز واكتفي به بني هذا الهيكل باسم الملكة حتشبست اخت الملك تحتمس الثاني وزوجته من الدولة الثامنة عشرة وهي اعظم الملكات اللواتي استوين على عرش مصر . ابوها تحتمس الاول وقد اشركها معه في الملك وزوجها باخيها لكي لا يقع النزاع بينهما فتتقسم المملكة وتخرب البلاد . وكانت اعرق من اخيها لان امها من نسل الملك واما امه فلم تكن كذلك فحق له الملك بالاقتران بها حسب شريعة المصريين وهذا هو سر اقتران الاخوة بالاخوات عندهم . وكانت اقدر منه على ادارة الملك فادارته بنفسها وترجلت فكان يشار اليها بضمير المذكر لا بضمير المؤنث وتصور لابسة ثياب رجل الاحيث تصور بصورة الهة كما ترى في الشكل الثاني على الصفحة التالية ثم توفي اخوها قبلها وكان له ابن من زوجة اخرى وابنة منها فزوجته بها ليشتركا في الملك بعدها واشركته معها في حياتها

واشهر حوادث هذه الملكة ارسالها وفداً الى بلاد بنط لغاية تجارية . وبلاد بنط هذه على ساحل البحر الاحمر شرقاً وغرباً حيث بلاد الحبش وبلاد الصومال (الشمال) الآن وكان المصريون الاقدمون يقدّسونها ويقال في تقاليدهم ان اسلافهم مروا بها وهم آتون الى القطر المصري . وكان مع الوفد خمس سفن شراعية سُخرت في البحر الاحمر جنوباً الى ان وصلت الى

(٢) الملكة حتشبسث

نهر فصعدت فيه ولعلهُ نهر النيل بين رأس الفيل ورأس جردافوى حيث يكثر شجر الابنوس والبضائع التي عاد بها الوفد على ما يذكر في الاخبار المنقوشة في الدير البحري . وكان اهالي بنط يطلقون لحاهم وهي دقيقة من اطرافها وهم طوال القامة ونساؤهم مترهلات كبيرات الحجاز ويسكن معهم او بالقرب منهم اناس سود الالوان يشبهون الاحباش في شكلهم . ويقال في الاخبار المنقوشة على جدران هذا الهيكل ان رئيس الوفد مشى مع ثمانية من رجاله وهم مسلحون

بالحراب والقسي الى ان وصل الى محلة امير قفط فقدّم الرئيس له الهدايا من الملكة وهي قأس من فلوس الحرب وخنجر وعقود وأساور فلاقاه امير قفط وزوجته وابناهما وابنتهما ومعهم حمار

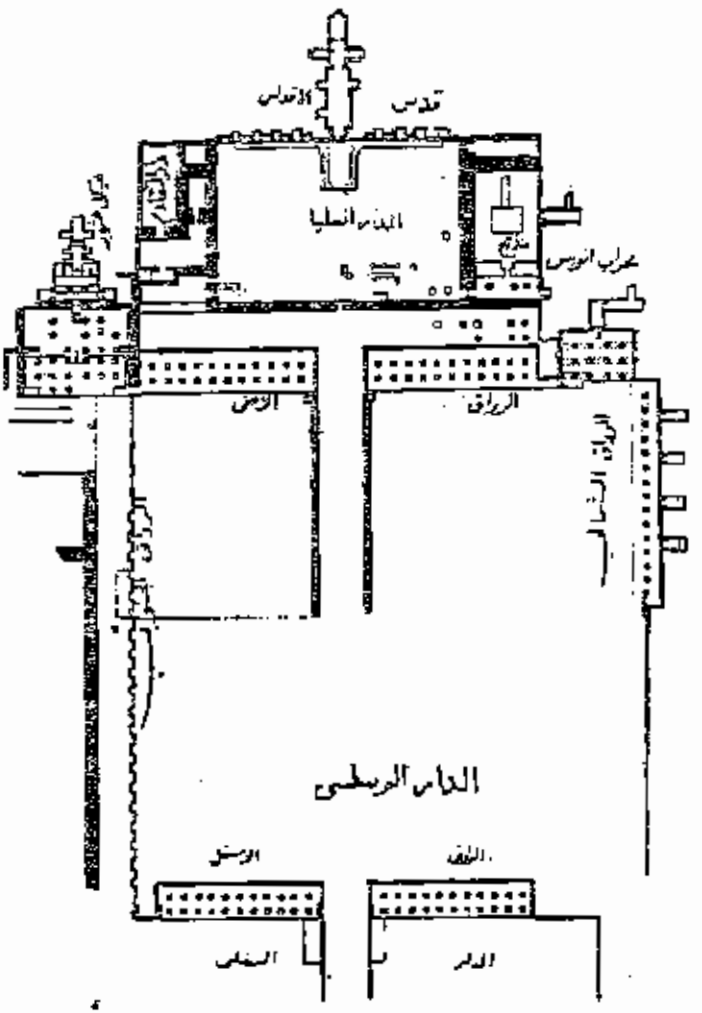

(٣٦) رسم هيكل الدير البحري

محمّل وثلاثة من الخدم وسأل رئيس الوفد قائلاً هل نزلتَ من السماء او جريت على الماء ولكن كل الطرق مفتوحة لدى ملك مصر ونحن نحيا بانفاسه . ثم قدّم له هدايا وهي خواتم كثيرة من الذهب ومحاجن وشمع ولبان فنقلت الى السفن وشحنت السفن بالابنوس والعاج

والذهب والبان والكحل والقرود والسعادين وجاءت الثمور ووصلت هذه البضائع الى طيبة وبينها اشجار البان فزرعت في حديقة الهيكل . والمرجح ان الملكة بعثت هذا الوفد بعد موت زوجها وقبل اشتراكها معها في الملك

وهيكل الدير البحري الذي بنته وماثت ولم تتمهُ من اعظم هياكل مصر واغربها لا مثيل لهُ في شكلهِ كأنهُ محفل لمجتمعات الدينية لا هيكل للعبادة . وقد نحت الجبل لاجلهِ حتى صار منهُ سطح مائل صفي لجوة كبيرة يوصل اليها بطريق طولهُ ٦٠٠ قدم نُصبت تماثيل الحيوانات على جانبيهِ للزينة او للحراسة ويوصل منها الى دار مرتفعة وهي الدار السفلى فيها طريق مائل مدرَّج وفوقها رواق معمَّد وبعد الرواق دار كبيرة وجد فيها طريق آخر مائل مدرَّج يصعد بهِ الى الرواق الاعلى ويوصل من هناك الى الدار العليا . وعلى جانبي الدار

(٤) امير قفط وزوجتهُ واولادهُ وخدمهُ

الوسطى والعليا اروقة وهياكل وغرف كثيرة كما ترى في الرسم المقابل وهذه المباني كلها من حجر كلسي ابيض كالرخام لوناً وسطوحها مملوءة بالكتابات والنقوش التي تمثل حوادث كثيرة في تاريخ هذه الملكة واسلافها والذين جاؤوا بعدها لان الملوك الذين تلوها زادوا في الهيكل وزخرفتهِ لكن تحتمس الثالث ابن زوجها كان الد عدو لها على ما يظهر فاتلف صورة وجهها حيثما وجدها

ومن اشهر الحوادث الممثلة على هذه الجدران اخبار الوفد المشار اليهِ آنفاً وصور كل ما ذكر فيهِ من الناس والحيوانات ومنها صورة امير قفط وزوجتهِ واولادهِ المشار اليها آنفاً وصور السفن التي غادت محملة ببضائع تلك البلاد واشجار البان كما ترى في الشكل الرابع والخامس

والنقش في هذا الهيكل من اجمل ما يرى في اهياكل المصرية كان صناعة البناء والنقش كانت في اوجها حين بني لكن الملوك الذين جاؤوا بعد هذه الملكة جاروا عليها ولم ينصفوها فحتحمس الثالث محا اسمها واتلف رسم وجهها وسنهوتب الرابع محا اسم المعبود امن ورعمسيس الثاني حاول اصلاح ذلك لكنهُ ادخل سعفةً فيهِ كان البناء والنقش حدثا في عهده . الاَّ ان هذه الاعمال الفدائية لا تعدُّ شيئاً مذكوراً في جنب اعمال المحدثين بين عصر الروم والعصر الحالي الذين لم يتركوا من الآثار المصرية الاَّ ما تعذر عليهم الوصول اليهِ . وكم من مرة

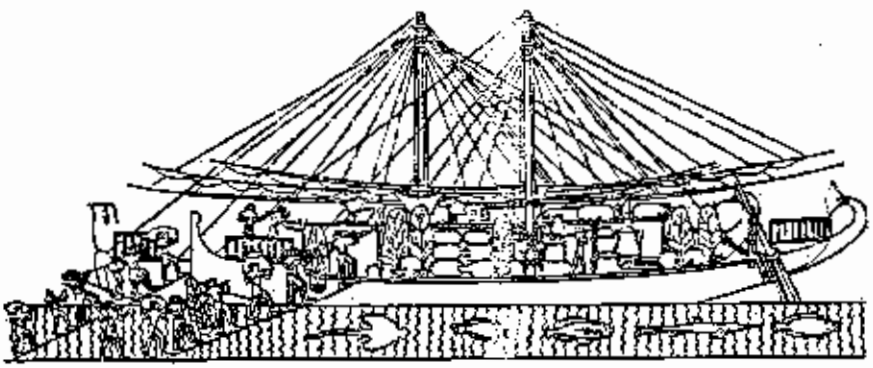

(٥) صقيلة من سفن الوفد المصري

كسروا تمثالاً كبيراً لا يصنع مثلهُ الآن بالوف من الجنيهات وتفتخر كل عاصمة من عواصم الدنيا بتمثال مثلهِ — كسروهُ لكي يصنعوا منهُ حجر رحى او ينظروا هل اخفى الاولون سيفاً جوفهِ كنزاً من كنوزهم

والملكة هتشبست هذه هي التي اقامت المسلتين العظيمتين في هيكل كرنك تذكاراً لابيها وقد وقعت احداهما وتكسرت ولم تزل الاخرى قائمة كابدع ما صنعهُ البشر بل هما من معجزات الهندسة والصناعة وكثيراً ما وقفت امام قطعة من تلك القطع الملقاة على الصعيد كأني واقف امام رفات صديق عزيز وانا اتحلم غيظاً من دناءة الذين حاولوا تكسيرها . طول المسلة القائمة نحو ٩٨ قدماً ويقدَّر ثقلها بنحو ٣٦٥٠ طناً فالعجب بقوم استطاعوا قطعها ونقلها ونصبها ونحتها وصقلها وتغشية سطوحها بالكتابات والنقوش وليس عندهم شيء من آلاتنا وادواتنا واعجب من ذلك الذوق الادبي السامي الذي يحمل امرأة على اقامة مثل هذا الاثر العظيم تذكاراً لابيها